المحاضرة الثالثة: تاريخ نظرية الحرية(الليبرالية):

1 – الجذور التاريخية للنظرية:

بعد أن عاشت أوربا في القرون الوسطى عصورا مظلمة، ساد فيها الجهل والتخلف وانتشر الاضطراب والفوضى وسيطرت الكنيسة على الأفكار والمعتقدات، وتم كبت حريات الأفراد من طرف الحكام، بدأ الليل في الانجلاء، وسطع نور الحرية انطلاقا من أواخر القرن السادس عشر مستلهما ضياءه من الإنجازات العلمية التي كانت تتقدم باستمرار، إضافة الى الاكتشافات الجغرافية التي كانت تتسع رقعتها، ضف الى ذلك، الأفكار التحررية التي حملتها في طياتها الثورة الفرنسية.

في ظل هذه البيئة التي نهضت ضد الحكم الاستبدادي الدكتاتوري، والعقليات المتحجرة وطي الممارسات السابقة، ولدت نظرية الحرية مستمدة قوتها من الثورات الكبيرة التي شملت الأفكار السياسية والمؤسسات السياسية لغرب أوربا، فالفرد لم يعد ذلك الكائن التابع، الذي يتعين إدارته، وتوجيهه كما كان الأمر في ظل النظرية السلطوية، ولكنه ذلك الكيان العقلاني، الذي يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ .

وما تجدر الإشارة اليه، كان للسياسة التي مارستها الكنيسة، كغلق باب التفكير والاجتهاد وحصره في رجالها، أثر كبير في ظهور حركات إصلاحية ثارت على هذه السياسة، ودعت الى إطلاق حرية الفكر والحوار، وأعلنت رفضها التحجر والانغلاق، وانطلقت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثورة فكرية تدور حول اعتقاد الانسان أنه سيد نفسه، وأنه يمكن أن يأخذ زمام الآمور بنفسه.

وشكل ذلك نقطة تحول في تاريخ نظرية الحرية في أوربا في القرنين الثامن والتاسع عشر معلنة عصر النهضة الأوربية، وخاصة بعد الثورة الفرنسية التي انطلقت عام 1789 وأعلنت حقوق الانسان، وكان لها مفهوم اقتصادي أيضا مفاده." ترك الفرد حرا في مزاولة نشاطه الاقتصادي، ونشاطه الفكري، دون أي تدخل من جانب الدولة في هذا النشاط بأي شكل من الأشكال"

ومع انتشار مبادئ هذه النظرية واتساع رقعتها أخذت دول أوربا الغربية تنتهجها سياسة عامة لها، ثم حذت دول أخرى حذوها، كالولايات المتحدة واليابان وعدد من دول أوربا الشرقية، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي في بداية التسعينات من القرن الماضي.[1]

ومن مفكري هذه النظرية نذكر "جون ميرتون"، "جون لوك"، ولقد حققت هذه النظرية الانتصار الأول الَا من خلال القرن الثامن عشر حين أصدر البرلمان البريطاني قرارا أكد على حضر أية رقابة مسبقة على النشر، كما سمح للأفراد إصدار الصحف من دون الحصول على ترخيص من السلطة. وقد جاء هذا الانتصار نتيجة لأفكار "بلاكستون" الذي أكد أن حرية الصحافة ضرورية لوجود الدولة الحرة، وذلك يتطلب عدم وجود رقابة مسبقة على النشر.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاء الدستور الأمريكي ليمنع منعا باتا لتدخل الدولة في مجال حرية الصحافة.

2- عوامل ظهور النظرية:

أتت هذه النظرية على أنقاض النظرية الأولى بأوروبا، نتيجة لتطورات فكرية ولأحداث سياسية واجتماعية وأخرى اقتصادية، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في الوقت الذي كانت فيه الرأسمالية في مراحل نشأتها. إذا هي عوامل مختلفة ومتعددة اشتركت في إظهارها وتحقيقها نذكر:

1 – العامل السياسي:

كان مطلب حرية الصحافة مطلبا سياسيا، وان تجسيد نظرية حرية الاعلام كانت تظهر شيئا فشيئا في الانتصارات التي كان يحققها هذا الكفاح السياسي، ضف الى ذلك التغيرات الاجتماعية في المجتمع الغربي، بزوغ فجر النهضة، وزوال المجتمع الاقطاعي القديم ليحل محله بناء اجتماعي ظهرت فيه الطبقة المتوسطة، و تغير الدور السياسي للمواطن العادي و بدء التعليم الجماهيري بإنشاء وانتشار المدارس.

بذلك ارتبطت الصحافة في تطورها بالبعد السياسي في العملية الاجتماعية، وان الصحافة تطورت وتشكلت ببطيء ومن الانتصارات المحققة هي بعض البنود التي أدخلها المشرعون الأوربيون في دساتيرهم كما كان الحال بالولايات المتحدة عند بداية استقلالها، فالبند 12 من التصريح بالحقوق لدولة

فرجينا لسنة 1776 الذي يعتبر حرية الصحافة حصن منيع للحرية ... و بعدها فرنسا عام 1789 الذي أقرت على نفس الأمر.

2 – **العامل الفلسفي:**

كان الفلاسفة والكتاب والعديد من المفكرين يتوجهون الى المطالبة بحرية الطبع والنشر، وأظهروا استياءهم من الإجراءات التي كان يتخذها الحكام في مصادرتها، وفي سنة 1644 وجه الفيلسوف الإنجليزي "ميلتون" نداء يطالب فيه بحرية التعبير، وصار هذا النداء بعد ذلك مرجعا لكل الفلاسفة والسياسيين، وتبعه فيما بعد العديد من الفلاسفة الذين اتفقوا على أن حرية التعبير حق طبيعي للإنسان، ومن البديهي ان يتمتع بها الفرد لمصلحته ومصلحة المجتمع. ففي سنة 1750 كتب الفيلسوف الفرنسي "روسو" ملخصا قانونيا ضمنه أرائه التي قام بنشره في كتابه" العقد الاجتماعي" والمتمثلة حول المساواة بين الأفراد والحرية الاجتماعية، وقد أصبح هذا الملخص القاعدة الأساسية التي ارتكزت عليها الثورة الفرنسية.

ويذهب فكر هؤلاء الفلاسفة والمفكرين للاتفاق أن حرية التعبير حق طبيعي للإنسان باعتباره ميال له، وبقي بذلك الصراع والاحتدام بين الحكام وأفراد المجتمع واتحد أفكار الفلاسفة بالنشاط الفلسفي للثورة على الأوضاع.

3–**العامل الاقتصادي:**

نمو التجارة في المجتمع الغربي، والنهضة الاقتصادية التي عرفتها انجلترا في القرنين الثامن والتاسع عشر كانت مثالا حيا لفائدة الحرية في المجتمع بترك الفرصة لكل شخص يمارس نشاطه الاقتصادي بكل حرية حتى يقوى التنافس ويفوز الأفضل، ويكثر الإنتاج وتغمر الرفاهية كل فرد من أفراد المجتمع.

عامل اقتصادي أخر الا وهو: التطورات الهامة في تكنولوجيا الطباعة والورق و ظهور الوسائل العلمية الحديثة كان له الأثر الكبير في انتشار الصحافة بين الأمم وتطورها، فقد وفرت الثورة الصناعية واستعمال الطابعات الآلية، المطبعة البخارية، فالمطبعة الكهربائية ثم المطبعة، ولا يمكن تجاهل التقدم الآخر في مجال المواصلات والبريد والتلغراف بإمكانياته لتسهيل لنقل الأخبار بسرعة من مواقع الأحداث الى قاعات التحرير، وانتشار خطوط السكك الحديدية بين المدن الرئيسية وظهور القوارب البخارية عام 1840،ضف الى ذلك اختراع التليفون عام 1872 الذي أطلق عليه لقب "حليف

الصحافة"، وبعد أن كانت الصحف في بدء نشأتها مقصورة على الخاصة من الناس، زاد انتشارها بين العامة، وظهرت أشكال جديدة من الفن الصحفي، كالطباعة بالألوان، والتصوير الفوتوغرافي. وظهور الأنظمة الحديثة للتوزيع، واستخدام الوسائل السريعة كالطائرات في نقل الصحف.

اتسعت مساحة الحرية السياسية كما زاد عدد المتعلمين وارتفع المستوى الثقافي بين الطبقات الوسطى، وانخفضت تكلفة أسعار الصحيفة، فانخفض سعرها لتصبح في متناول العامة من الناس.

استعمال الإشهار التجاري بواسطة الصحافة، بحيث أصبحت الصحف تكتسب موارد إضافية لمبيعاتها مما جعلها تقوم بتخفيض لسعر النسخة الواحدة من الجريدة وهي العملية التي تجعل الجريدة في متناول عامة الناس.

اكتشاف وسائل الطبع الجديدة وخصوصا "الروتاتيف" التي بدأ العمل بها سنة 1870، ومن مزايا هذا الاكتشاف أن السحب انتقل فجأة من 300نسخة للساعة الى 18.000نسخة للساعة الواحدة.

تظافر هذه العوامل المذكورة جعلت الصحافة تعرف انتشارا بين أوساط الأفراد والمجتمعات كسرعة البرق، وأضحت الحاجة الى التطلع على الأخبار والمعلومات أمرا ملموسا يتزايد يوما بعد يوم.

3- مبادئ النظرية:

استندت هذه النظرية مبادئها من أفكار جملة من المفكرين الغربيين والفلاسفة وهم كل من "أدم سميث"، "جون لوك"، "جون ملتون"، "ديكارت"، "نيوتن" وأخرون...

تقوم هذه النظرية على فكرة الحرية، ويعني ذلك أن الانسان مخلوق يسيره العقل وليس العاطفة، والعقل بطبيعته البحث عن الحقيقة، وهذا يؤدي الى معرفة قوانين الطبيعة، فالحقيقة تستمد من عقل الانسان لا من السلطة الحاكمة، والانسان أيضا كائن أخلاقي، والأخلاق هي التي تحدد التزاماته، نحو الآخرين.

وبالتالي ليس من واجب الحكومات فرض أي سلطة على حرية الكلمة، فالإنسان حسب هذه النظرية يميل الى الحرية بطبعه، والطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة تكون بترك الآراء تتصارع وتتنافس بحرية في ميدان أو سوق حرة، مما يتيح للأفراد الفرصة لمقارنة الآراء المختلفة، واختيار الرأي الصائب الذي يسود في الأخير، بعد تبادل الأفكار والتشاور.

بفضل تلك الظروف المتظافرة استطاعت المجتمعات تحقيق انتصارات مهمة، تعميم التعليم، حق الانتخاب للكثير من المواطنين، حق الفرد في ممارسة نشاطه الاجتماعي، والتنافس في الحصول على

أكبر قدر ممكن من الربح وزيادة الإنتاج، مما أدى لاحقا الى ظهور الديمقراطيات الرأسمالية، وظهور الاحتكارات بأوسع معانيها.

وفي الجانب الواقعي العملي، فان تطبيق مبدأ حرية الصحافة لا يزال بعيدا عن كونه تطبيقا صريحا.

4- خصائص النظرية:

1 –ترفض هذه النظرية الرقابة أو مصادرة الفكر، وقد تبلورت هذه الفكرة على فترة طويلة من التاريخ، شهدت خلالها انتشارا واكب الثورة الصناعية في أوربا وشجعت على بروز أفكار ومفاهيم جديدة في الحرية والديمقراطية.

2–الصحافة مؤسسات مستقلة يمكنها الربط بين مختلف السلطات القائمة في المجتمع كالسلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية. وعلى هذا الأساس تمثل الصحافة السلطة الرابعة[1].

3 –إن الفكرة الجوهرية لهذه النظرية تنطلق من إيصال الحقيقة للناس وعدم الخضوع لأي شكل من أشكال الرقابة سواء داخليا أو خارجيا والأهم من ذلك حماية حرية الصحافة والدفاع عن وجودها[2].

4 –يحق للأفراد ملكية الاعلام والصحافة، كما يمكن إصدار الصحف بدون أي ترخيص[3].

5- نماذج عن النظام الإعلامي الليبرالي:

أ/ في فرنسا:

لقد كانت الثورة الفرنسية الفاصل الحقيقي لحقبة من الممارسات، وإعلان عهد جديد للمجتمع الفرنسي مع نهاية القرن الثامن عشر بعد قيام الثورة الفرنسية عام 1789، وظهور العديد من الصحف التي لم تخضع لأي رقابة حكومية، ثم تجسدت هذه الحرية بعد الإعلان عن حقوق الانسان في 17 جويلية من سنة 1789. الأمر لم يدم طويلا بل تعثر ولظروف سياسية ، فقدت من خلاله الصحافة حريتها قرابة خمس وستين عاما حتى صدور قانون 9 جوان 1881، الذي جاء بنظام شامل للطباعة والصحافة محرما على السلطات الحكومية استعمال أي نوع من الرقابة.

ب/في الولايات المتحدة:

تمتعت الولايات المتحدة الأمريكية بحرية نسبية منذ استقلالها وهو ما يظهر جليا في البند 12 من التصريح بالحقوق لدولة فرجينا الذي وضع سنة 1776 الذي يقر حرية الصحافة، ثم تدعمت هذه الحرية

بموجب التعديل الدستوري لعام 1791 مما أتاح للصحافة الأمريكية إمكانية لعب دورها كأداة للرقابة على أعمال السلطة. وكانت هذه البداية لوضع أسس حرية الرأي والتعبير.

6- نقد النظرية:

أن الصحافة والاعلام في ظل هذه النظرية امتازت بحرية لا قيود لها، إلا أن الباحثين اعتبروها غائبة في ارض الواقع الرأسمالي، وأن مبادئها أملتها الاحتكارات الرأسمالية والشركات العابرة للقارات وبذلك لقد وجهت لها عدة انتقادات:

1- استغلال أجهزة الاعلام لقوتها الهائلة في خدمة أهدافها الخاصة، فيعمل مالكيها الترويج لأراهم وخاصة في الشؤون السياسية والاقتصادية على حساب المعارضة،

2- الاهتمام بالأمور التافهة والمثيرة أثناء تغطيتها للأحداث الجارية،

3- تقحم نفسها في حياة الأفراد الخاصة بهدف الربح السريع،

4- تحكم طبقة اقتصادية واجتماعية واحدة تتحكم في الصحافة هي طبقة أصحاب الشركات الاحتكارية [4].

المراجع:

1- فلاح كاظم المحنة، **علم الاتصال الجماهيري** ، الطبعة الأولى، الأردن، دار الوراق للنشر والتوزيع، 2005، ص:214 .

2- محمد حجاب، **نظريات الاتصال**، الطبعة الأولى ،دار الفجر للنشر والتوزيع،2010 ، ص ص:218-220).

3- فاروق أبوزيد، **مدخل الى الصحافة**، مصر، دار علم الكتب،1995 ، ص107.

4- بسام عبد الرحمن مشاقبة، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2014، ص ص:172-173 .